شاعر من يوغندا ...

للأستاذ عبد القادر رشيد الناصري

توطئة :

الشيء الذي كنت أنتظره ، يوم وجهت ندائي على صفحات المجلات العربية في الجزيرة والمهاجر طالباً من إخواني الشعراء في تلك الأصقاع النائية موافاتي بقسم من نتاج قرائحهم وترجمة حياتهم لعرضها على القراء الذين يجهلون كل شيء عنهم في سلسلة مقالات تكشف المستور من نزعاتهم الحسية، وعواطفهم الجياشة، وأحاسيسهم الملتهبة ، لتقدمها « الرسالة » الزاهرة ، مجلة الأدب الحي ، والشعر الخالد ، إلى عشاق الأدب ، وجهرة المثقفين ، ولكن بالرغم من مرور ستة أشهر على توجيه دعوتي تلك لم يصلني من شعراء الجزيرة إلا النزر القليل ، كأنما ، تلك الأم الولود عقمت فلم تعد تنجب شاعراً بعد ، وكأنما الأرض التي أطلعت نجوم البيان وأعلام الشعر — منذ الجاهلية حتى الآن — استحالت إلى صخور جرداء لا نبت فيها ولا زرع . فإلى جميع من وجهت إليهم ندائي بالأمس ، سواء على صفحات « الرسالة أو الأديب أو صوت البحرين أو الصراحة السودانية أو الإصلاح النيويوركية أو العصبة البرازيلية » أكرر عليهم الطلب ثانية ... وحسبي أن أقدم اليهم اليوم .. أخاً من إخوانهم في هذه الدراسة على أن أتبعها في القريب بدراسة جديدة عن «شعراء القطيف..»

الشاعر :

هو الزميل الفاضل الأستاذ لطفي جعفر أمان .. ولد في « عدن » في منتصف عام « ١٩٢٨ » للميلاد فيكون بذلك قد سلخ من حياته ٢٣ سنة و ٦ أشهر تقريباً . تلقى دروسه الأولية في مدرسة حكومتها الابتدائية لمدة سبع سنوات .. وفي ذلك العهد الطري الشبع برائحة الطفولة كانت ميوله تتجه اتجاها بدائيا إلى الفنون والأدب ؛ كما كان أخوه الأكبر ينصب انصبابا وينكب انكبابا على مطالعة الكتب مع إيثار العزلة وخلق جو شاذ من الانطواء على النفس متخذا من حكمة شاعر الأجيال « وخير جليس في الزمان كتاب » رائداً . . ودليلا . . أما أخوه الثالث فكان يجيد الرسم ويبعثر لوحاته على الجدران وفي الأدراج وبين جوانح المجلات المصورة . أما أخوهم الرابع فكان يقرض الشعر .. فخلقت هذه الأسرة التي كرست حياتها للفن جوا خاصا للأخ الصغير . . وهيأت له كل شيء لتمده إعداداً أدبيا خاصا . . ولنستمع إليه وهو يقص علينا أحاسيسه في تلك الفترة ...

« . . ولن أنسى انزوائي معه — يقصد أخاه الشاعر — فترات طويلة من الصمت أحدق في وجهه التائه أو أغرق معه في موجات السطور التي كانت تتلاطم على الورق وهي تشهد ميلاد شيء اسمه قصيدة .. في ذلك الجو القاتم المضيء بإيحاءات الأدب والفن أولعت بقراءة الروايات بإدمان . . ورسم الصور بشغف .. وحفظ الشعر بسرعة عجيبة .. وأخذت أنزوي حتى عن ملاعب الصبيان الطبيعية(١) »

ومن هذه الكلمات القصيرة التي اقتطفتها من مذكراته يتبين لنا كيف أن الأسرة نفسها دفعت بالصبي الصغير إلى الأدب بعد أن هيأت له الأجواء ..

وفي نهاية عام ١٩٤١ أتم دراسته الابتدائية وكان من الأوائل فاختارته حكومة عدن مع زميل له لإتمام دراستهما الثانوية والعالية في السودان. وهكذا أشرف عليه عام ١٩٤٢ بحياة جديدة في أرض غريبة . حيث التحمت الأشواق بالكفاح ، وامتزجت الدموع بالعرق .. وترنح العمر اللدن بين التيه والرشاد .. تيه الغربة .. ورشاد العلم

وأخذت موجة الانتقال من بيئة إلى أخرى تعكس انطباعاتها على الخاطر وتسجل آثارها في الوعي والخيال

وفي تلك البيئة تعرف بصديق كان له الأثر الفعال في تكوينه الأدبي إذ كانت مدرسة أم درمان الثانوية تنظر إلى هذا الصديق الساخر الكئيب على أنه شاعرها الفيلسوف .. وهذا الصديق هو محمد عثمان جرتلي الذي كان ينشر قصائده في الصحف الأدبية السودانية ويقتني كل ديوان حديث

(١) من رسالته المؤرخة في ٢٣ يناير سنة ١٩٥٢ إلى صاحب هذا المقال

وعلى يدى ذلك الصديق الشاعر أخذ مترجمنا الشعر وحفظه وخصوصاً دواوين وقصائد المرحوم على محمود طه والتيجانى يوسف بشير وفؤاد بليبل ، ومحمود حسن إسماعيل .. حيث كان الظلام الملتهب على خلجات أولئك الشعراء يثير فى أعماقه أصداء مماثلة ويحمله معهم بعيداً عن فجاج الأرض إلى إشراقات روحية ضافية يحس فيها بأن للحياة .. معنى غير التراب

وفى عام ١٩٤٣ أخذ شاعرنا يقول الشعر . وكانت مجلة « فتاة الجزيرة » التى تصدر بعدن .. تحمل بواكيره للقراء .. ثم وسعت له الصحف السودانية صدرها فنشرت له قصائد ومقالات وأقاصيص كما نشرت له الصباح المصرية بعض ألحانه

وفى أوائل عام ١٩٤٦ التحق بقسم الآداب بكلية «غردون» الجامعية بالخرطوم بعد حصوله على شهادة « السينير كمبردج » بدرجة ممتازة فى اللغة العربية

وراح شاعرنا الشاب يدرج فى محيط الكلية على نمط جديد من الحياة ولم يكن له أى صديق .. فقد سافر محمد عثمان جرتلى إلى مصر والتحق بكلية الطب بجامعة فاروق الأول بالإسكندرية

كان كل شئ حوله يبعث على الاكتئاب رغم ضحكات الطبيعة المتألقة على النيل . وعلى الاتزواء رغم صخب المحيط الجامعى ووحدته الاجتماعية .. وهذه الوحدة وهذا الألم النفسى وبعده عن دياره وأسرته زينت له الهروب من الحياة.. من واقعها المؤلم.. فلجأ إلى المطالعة وسماره دواوين شعراء الإمبراطورية الإنجليزية . شيلى .. وبيرون.. وكيتس.. وتالامير..وأوبرت برولا .. ومعظم ما تخرجه المطابع العربية من دواوين

فقد كان كل مساء يحمل بعض الكتب والأوراق إلى ركن قصى هادئ فى «الألبيون هوتيل» بالخرطوم أو إلى «بى كاريه» أو إلى « حديقة القرن » المشرفة على النيل والغارقة بالحسان والزهور والأقداح . حيث يستلهم الطبيعة الفاتنة أغانيه وألحانه . وهكذا مرت عليه ثلاث سنوات فى كلية « غردون » وقبل أن ينال شهادة « الدبلوم » فى الآداب بعشرين يوما كانت مطبعة « فتاة الجزيرة » بعدن قد فرغت من طبع ديوانه الأول « بقايا نغم » الذى صدره بهذا الإهداء

أنت يامن يفيض من صدرك الفض جلال الصليب نوراً عليا
لك منى هذا الذى بين كفيك خفوق بحبك المفقود
نغم ضاع فى مجاهل دنياك هياما ، وجف إلا بقايا
فاذكرينى بها .. فيا ، رب ذكراك تعيد المفقود من دنيايا
من أمانى ، أضعت فيها شبابى

ولهذا الديوان قصة ، وها هوذا الشاعر ذاته يقصها علينا

« كان ذلك فى كلية الآداب حين أحسست لأول مرة بظمأ الروح للروح ، وكانت ذات الصليب تبعث فى نفسى ذلك الإحساس الجارف فأصوره لها.. ثلاث سنوات .. ناراً من الحب فى روض من الشعر .. »

وقد أزلت الدموع من أعماقه ، وفجرت فى آفاقه الظلمة والضياء..وسحقت أمامه كل أمل لتهب له أملا خليا لم يكن سوى اليأس ، اليأس القاتل الذى يسحق كل شئ :

يا خضما جهم الجوانب يجرى فى مدى مبهم وأفق قصى
أى لغز مطلسم فى دياجيك .. وسر فى لغزك المطوى ؟!
كلما لاح لى شراع على الأفق تهادى مثل الشعاع السنى
هاج فى ناظرى تطفل نفسى فتلفت سائلا كالصبى
ما ترى ذلك الذى يقحم الغيب ويمضى إلى مداه الخفى !
وركبت العباب يدفعنى منه قوى يردنى لقوى
لاحقا بالشراع أستنفذ الهمة فى لجة الخضم العصى
وهو ينأى .. وإن يكن حيثما كان .. كوهم فى لمحة العبقرى

وكان فى منتصف كل ليلة ينهض بقوة من بين الكتب والدروس تجتاحه مشاعر عارمة ذات غموض .. فيرتعد وهو يحس بالبرد والجوع .. لا يدرى ماذا يعمل . وحشة وسكون .. فيمرق من الباب كالشبح عليه وثار من الصوف .. النيل على مقربة عشرين خطوة .. الطريق مقفر إلا من رجال الشرطة . والعسس قابعون تحت الشجر أو سائرين تحت الظلام .. صمت أمامه . . وضجيج فى أغواره .. يقطع الجسر الطويل .. إلى أين ؟ . إلى ما وراء ذلك الجسر . هناك حيث يسند ظهره على عمود الكهرباء وأمامه يد الله .. مسكنها الغارق فى الظلام والشجر

الوقت . سحر .. الفجر قريب

وتقطع السكون عجلات أول ترام فى الفجر فيعود :—

خفقات الزهر فى الأسحار للفجر القريب

وانبثاق الأمل المشرق فى ليل الغريب
واختلاج النور فى المصباح .. عربيد اللهيب
وجراح الشفق الدامى على الأفق الكئيب
كلها معنى بقلبي . من حبيب . لحبيب
يا شموساً روعت بالأمس قلبي بمغيب
أين أنت !!

وتتوالى الليالى .. لا شئ .. كل شئ .. يمضى إلى النيل .. النيل القريب . هناك تحت شجرة ألفته وألفها لا يرضى بغيرها من الأتراب المالقات أوراقها بها فيهتف :

من رآنى هنا .. شريد خيالات . ووهم يجنح الخطرات
أعلى الكون فى ظل زهراء حنون مخضلة النغمات
سكبت من دمى..تسلسل فى الليل . فأصغت نوابت الربوات
وجرى النيل.. واقفاً فى حنايا الليل ينساب كالشجى فى اللهاة
والمصابيح قائمات على الشط .. نجوما مجنونة الومضات
وظلال النخيل أطياف أشباح.. تربصن فى الدجى جاثيات
غبن عن ضجة الحياة ، وأطلقت افكرى أعنة السبحات
فى دجى مطبق .. وأفق سحيق .. وفضاء محاولك الظلمات
وتصاوير أبدعتها يد الجن .. خفاف .. عربيدة الحركات
فى غمار الذهول تبعث فى نفسى تهاويل من جنون الحياة
ذكريات تدب فى ظلمة اليأس وتنساب فى دمى صاخبات
أزهق العمر فى يديها نضيرا .. وتهاوى فى كهفها أمنيات
من رآنى أشيع الحب وحدى .. وهشيم الآمال فوق الرفات

وبعد يا قارئى الكريم أظن أن اليأس بلغ بك منتهاه حينما قرأت هذه اللوعة الدامية التى صورها لنا شاعرها الشاب . فماذا تريد ؟ سأتركك تجتر أنفاسك ببطء .. أو بعمق إن شئت .. ثم هلم معى لنخرج من هــذه الكوة المعتمة بالحب واليأس والألم المرير .. وهيا بنا نغلق على الروح الأبواب ونتسرب فى سراديب الجسد .. حيث نسمع صراخ الدم فى العروق :

ههنا فى غرفة حمراء .. عابثة الظلام (٢)
وفراش رقصت فى عطره أحلى الليالى
ههنا أحلام مسحورين : قلب .. وجمال

(١) القصيدة من مجزوء الرمل وهذا البيت خارج عن الوزن.

حلم .. أم سكرة ؟ أم نهزة دامت لنا
نحن من نحن . غريبان عن الدنيا هنا

وفى عام ١٩٤٩ عاد الشاعر إلى مسقط رأسه إلى عدن بعد غياب سبع سنوات لاستقبال حياة جديدة أخرى من العمل والكفاح الوطنى . فقد عين مدرسا بمدرسة الحكومة الثانوية كما اشترك محرراً فى مجلة المستقبل .. ومحرراً أدبيا فى « فتاة الجزيرة » وكان ينشر فى الأخيرة — وهى أكبر صحيفة فى الجنوب قصائد ومقالات بعضها صريحة التوقيع وبعضها مستعارة الاسم تحت رمز « النسر » وقل أن يمضى أسبوع دون أن يتحف قراءه بشئ من الشعر أو النثر .. ثم أخذت مجلة « الأديب » اللبنانية تحمل آثاره للبلاد العربية ..

وفى سنة ١٩٥٠ كانت الحياة الجافة فى عدن قد سودت العيش فى عينه فلم يعد يطيق البقاء والصبر . فأحس بشعور الثورة على الأوضاع والنظم القائمة والكهانة وعباد المال . فالتفت كالمجنون : سلسلة جبال بركانية عارية تضج بالجحيم .. وسلالة آدمية كالقبور تتحرك بيله .. ومظالم استبدادية جائرة تنتقل بقفازات من حرير .. وفن موتور مغمور يحترق فى قاتم .. وصنف من الرق عجيب .. يبيحه قانون القرن العشرين .. وكل هذه الأوضاع والصور كانت مادة لديوان جديد هو « أغانى البركان » .. ومن هذه الأغانى صرخته المؤلمة هذه

تلفت فلا لمحة من جمال   تلفت . فإن الحياة محال
فأنى تلفت تلق الجبال   جبالا تضج بنار الجحيم
وسكان مقبرة فى زوال

حياة ..كظم الصدا فى سراب   حياة .. كلفح اللظى فى عذاب
حياة .. كثورة جن غضاب   لقد أزهق الحق .. يا ويحهم
وديس على الفن فوق التراب

إذا الريح طوعى لسخرتها   إذا النار ملكى لأضرمتها
وهذى الجبال لفجرتها   براكين تسحق هذى القبور
فأزهو بأنى حطمتها

كل شئ لم يكن غير الثورة واليأس :—

فقامت تلم بقايا القوى   على هيكل مضمحل الأهاب
وتسحب أنفاسها النازفات   وتقلع خطوتها باغتصاب

إلى أن محاها شفيف الفضاء وأغوت هداها الفياق الرحاب
تساقط ثورتها فى الرماد وتعشو بصيرتها فى الضباب
وقد جد الكون فى نبضها وغاض الجمال بقفر يباب
وأين مضت فى غيوم الظلام ؟ إلى الخلد ؟ لا بل سحيق التباب
مصير الذى فج فى نفسها مغاور يأس عتى الرغاب
تسائل عن ذاتها فى القبور فتهتف ديدانها بالجواب
ومن حولها ... كل ما حولها ضجيج ضياع .. وصمت غياب

ثم مضت سنتان .. وفى سنة ١٩٥١ حدثت للشاعر حركة انتقال كبرى .. فبعد صراع نفسى واجتماعى عنيف تزوج حيث احتضن إلى حياته العاصفة إشراقة من السماء وجذوة من النفس . فانتقل من بين الأغلال الجبلية فى عدن إلى مسكن أنيق فى ضاحية « الشيخ عثمان » فى فيحاء من الرمال حيث مسير القوافل .. الرعاة فى المساء .. وحداء البدو .. فاعتزل المجتمع فترة طويلة إلا ما يعنى بها فى مدرسته وبين طلابه

وآنذاك بغضا الحياة فى عدن .. بغضاها معاً . وأحسا أنهما يفقدان شيئا جسيما .. هى « الحرية » .. هما يعيشان ولكن فى محيط من البارود والأغلال .. فحملا أمتعتهما وحطا أطواق الجبال فجاءة إلى غابات أفريقيا .. إلى يوغنده .. حيث يدير اليوم الشاعر مدرسة إسلامية فى « كلمولى » وكان ذلك فى نوفمبر من عام ١٩٥١

وهما الآن وحيدان هناك .. ليس معهما من جنى الدنيا سوى الحب.. غريبان يعيشان على زاد ضئيل جاف من أباديد الذكريات

وفى مساء بارد ممطر موحش .. حينما وضعت راحتها على كتف شاعرها الغريب بحنان وأجهشت تبكى فراق الأهل فهتف من أعماقه :

نفض المساء ستار نافذتى فترنحت فى رعدة الهطل
وتعلقت والستر يجذبها بذراع منحل القوى كهل
فنهضت أحميها وقد حضنت أعشى الزجاج بصدر مبتل
وأزحتها عن لوحة خفقت بالأفق خلف الماء والظل
والريح تخبط فى مساربها مجنونة بسنابل الحقل
وتجهمت ديم مقرحة سالت مآقيها على السهل
حلك يقطعها الغمير على أرض كأن أديمها يغلى
حتى الطبيعة هاج سادرها وتقلبت محزونة .. مثلى
ونبهت إذ لطفت على كتفى كف تمر به على مهل
لما التفت وراعنى منها نضو الخيال وشاحب الشكل
ألقت على صدرى جدائلها ورنت بصمت الدمع كالطفل
وعلى الشفاة تذب رعشتها وتسير فى جفنين من ذل
حتى إذا ساءلتها هتفت ! نحن الغريبان بلا أهل

وهى كما يقول « من أعز الأبيات إلى نفسه .. »

وبعد أيها القراء فهذه لمحة سريعة لفترة من شباب أبلى وجاهد .. ثم انهار .. وحملته المظالم إلى الهروب .. والتغرب . وليس هذا بجديد فى عصر تتشعوذ فيه القوة بالنسف والتخريب.. نسف المثل وتخريب مزايا الإنسان ..

هذا ولا أريد أن أودع الشاعر لطفى جعفر أمان دون أن أقدم لقرائى الأعزاء قصيدته التى نظمها يوم ٢٤ / ١١ / ٥١ فى الباخرة « دتوتر ماسل » وهو فى طريق هجرته من عدن إلى مباسا ومنها إلى يوغنده وهى بعنوان « شريد »

سوف أمضى. لكن إلى أين.. لا أدرى؛ خطانى الظلام تسرى جريئه
لى إشراقة من الذات .. من ذاتى أنا .. هذه القتام الوضيئه
عبرت والحياة .. إثم وذنب .. وهى منها.. لكن ومنها بريئه
كلما أفرغت جمالا وطهرا طفحت بالآثام كأساً مليئه
ويح نفسى ضحية تتردى فى خناق التلال .. أية بيئه
أنا فى الناس سبحة من طهود فجفتها أنامل من خطيئه
وحدتى .. يا غيوم ظللها الدمع وأخرى فى جانبيها أواره
تحتمى بالعذاب فى كل قبر نبذ الليل فى الدجى أحجاره
وهى فى لينها وفى عطرها النامى شباب ونفحة من طهاره
أى شئ تنهد فى إثر بلهاء مخلوعة الخطا .. مختاره ؟!
أخطايا تنهدت فى دماها ؟ فمضت تنحر الهوى كفاره
أم غرام تلقفته الأمانى فسلته . مليحة غداره
شق بى فى مجاهل الكون صوت مستفيض الصدى جهلت قراره
أنا فى يمة الدجورى ريح .. ودوى .. وومضة وحراره
ولأى الدروب يزجى بى الصوت محثا . مطلسما أسراره
شقوتى أننى على شفة الحسن وفى نبضة الهوى قيثاره